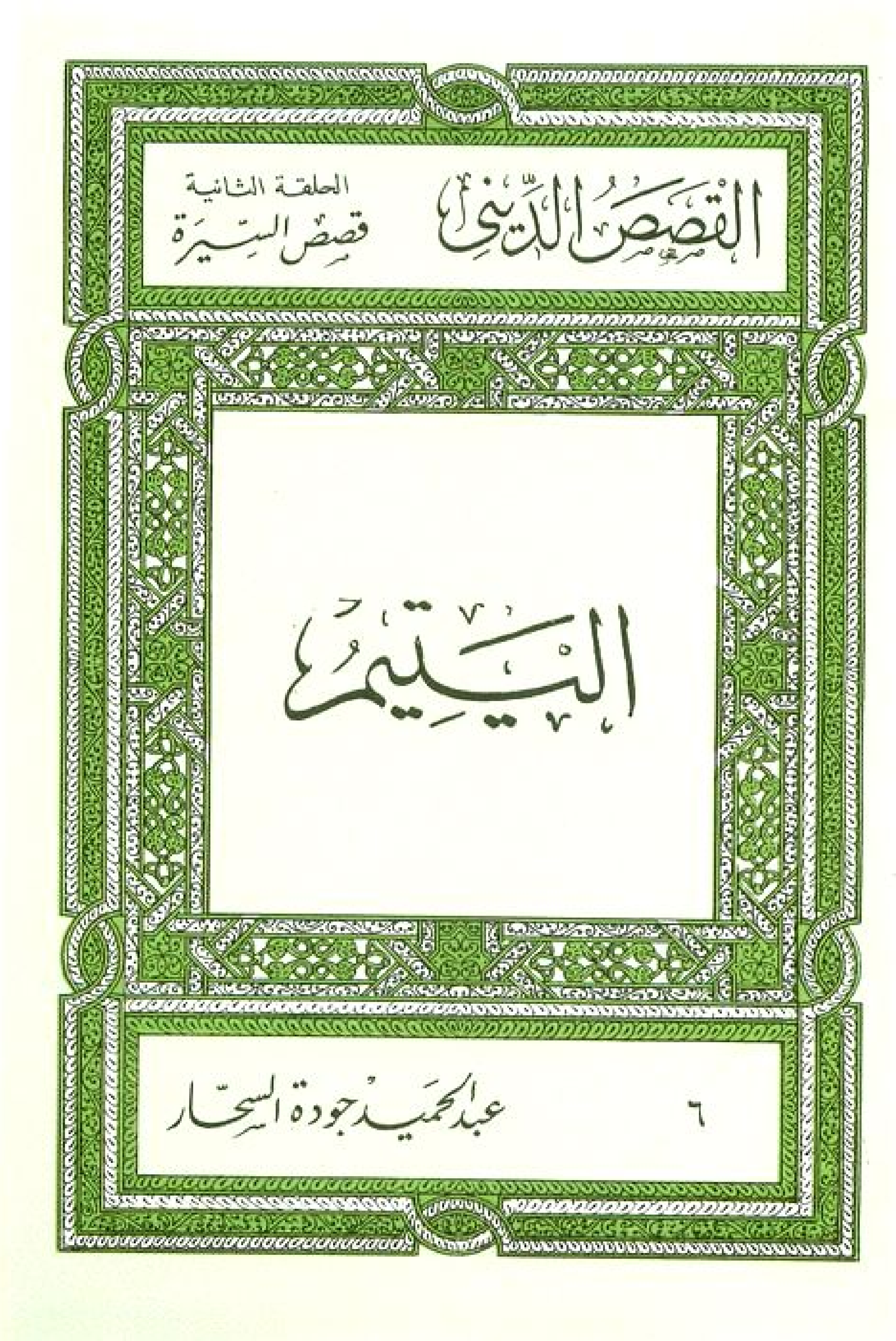


القصص الديني
الحلقة الثانية
قصص السيرة
اليتيم
عبد الحميد جودة السحار
٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

(قرآن كريم)

١

رأتْ آمِنــةُ أن تخـرجَ بابنِهــا محمَّـــد إلى يَـثْرِب (المدينة) ، ليزورَ أخوالَه من بنى النَّجَّار ؛ فراحتْ تستعِدُّ لرحلةٍ طويلــة ، فــى الصَّحْـراءِ المترامِيــة ، فأمرت أُمَّ أيمن ، وكانت جاريةً ورِثها محمدٌ عن أبيه ، أن تُعِدَّ طعاما ، وأن تُجَهِّـزَ جملا ، تضع فوقَه هَوْدجًا يحميهم منَ الشمسِ الحاميةِ فى الطريق .

وانتظرت آمنةُ حتى وجـدتْ قافلـةً ذاهبـةً إلى المدينة ، وأخذت معهـا محمَّدًا وأمَّ أيمن ، وانضمت إلى الرَّكْـب ، واستمرتِ القافلـةُ فى سيرِها حتـى بلغتِ المدينة ، فذهبت آمنةُ وابنُها إلى بنـى النجـار ، وتعرَّف محمدٌ بأخوالِـه ، ومكـث عندَهم شـهرا ، يتمتَّعُ بجوِّ المدينةِ اللَّطيف ، ويسـمعُ خَريـرَ المـاء فـى الحُقُول ، وينعَـمُ بـالحدائقِ والزُّهـور ، فقـد نشأ فـى

مكّة ، حيث الحرُّ الشديد ، والفضاءُ الواسعُ كبحرٍ هائل من الرِّمال .

وفى المدينةِ تعلَّم محمدٌ العَوْم ، ولعِبَ مع أبناء أخواله . ولما انتهتِ الزِّيارة ، وخرجتِ القافلةُ من يثرب . هبت عاصفةٌ شديدةٌ فى الطريق لم تحتملْها صحَّةُ آمنة . وفى ليلةٍ من الليالى ، ماتت آمنةُ فى الطريق ، ومحمدٌ يذرفُ عليها دمعَه ؛ وحملتها أمُّ أيمنَ إلى قريةِ « الأبواء » ودفنتها بها . واستأنفتِ الجاريةُ والغلامُ اليتيمُ الرِّحلة ؛ وعاد محمدٌ إلى مكة ، والحزن يعتصِر قلبه .

٢

عاش محمدٌ فى رعايةِ جَدِّه عبدِ المطلب ، وكان جدُّه يُحبُّه ، ويعطفُ عليه ، لا يأكلُ إلاّ إذا أكلَ معه ، ولا يخرجُ إلاّ إذا خرج معه ، وكان يُوضَع لعبدِ المطّلبِ فِراشٌ فى ظلِّ الكعبة ، فكان أبناؤه يجلسون حول فِراشه ذلك حتى يخرجَ إليه ، لا يجلسُ عليه أحدٌ من بنيه إجلالاً له ، فجاء محمدٌ مرَّةً وهو غلام ، وجلس عليه ، فأخَّره أعمامُه عنه ، ورأى عبدُ المطّلب ذلك منهم ، فقال لهم :

ـ دعوا ابنى ، فواللّه إن له لشأنا .

ثم أجلسَه على الفراش ، وراح يمسَح ظهرَه بيدِه .

٣

ومرِض عبد المطَّلب ، فلزِمَ فراشَه ، فكان أبناؤه يأتونَ إليه يزورونَه ؛ وكان محمدٌ يقِفُ بالقربِ من سريرِ جَدِّه ، وينظُر إلى وجهِ الذّابل ، فيُحِسُّ حزنا . لقد ماتت أمُّه وتركتْه ، فكفلهُ جَدُّه ، وها هو ذا جدُّه يموت ، فمن يَكفُلُه من بعده ؟

عَرفَ محمدٌ ألمَ اليُتْم ، وسكن قلبه الحُزن ، فأخذ ينظُر إلى جدِّه المريض ، وفى فؤادِه أسىً عميق .

ولَمَحه جدُّه وهو ينظر إليه دامعَ العين ، فتحركت شفقتُه ، فدعاه ، وراح يمسحُ ظهرَه بيدِه فى حَنَان ، ثم أوصى ابنَه أبا طالب أن يكفُلَهُ بعدَه .

ومات عبدُ المطَّلب ، ووقف محمد خلف سريرِه يذرُفُ الدّمعَ السّخين ، وحزِنت مكةُ على عبدِ

المطَّلبِ حُزْنا لم تحزَنْه على أحدٍ قبلَه ، وأُغلِقت الأسواق ، فلم تَقُم بمكةَ سوق لموتِه .

وأخذ أبو طالبٍ محمَّدًا اليتيم ، وضمَّه إلى أولاده ، وأحبَّه أبو طالبٍ حبّا فاقَ حبَّه أبناءَه ، فما كان يأكل ألاّ مَعه ، ولا ينامُ إلاّ إلى جنبِه .

٤

قرَيشٌ تستعدٌّ لخروج القافلة إلى الشّام ، والإبِلُ فى السُّوق محمَّلةً بالبضائع ، والْحَمِيرُ والبِغالُ تغدو وتروح .

وكان على رأس القافلة أبو طالب ، فلما ركِب ناقَته ، واستعدَّ الجميعُ للسَّير ، أمسك مُحمَّدٌ بزمامِ ناقةِ أبى طالب ، وقال :

ـــ يا عمّ ، إلى مَن تكِلُنى ، ولا أبَ لى ولا أمّ ؟

فرقَ له قلب أبى طالب ، وقال :

ـ واللّه لأخرُجنَّ به معى ، ولا يفارقُنى ولا أفارقُه أبدا .

ثم أركبَه على الناقةِ خلْفه ؛ ففرح محمدٌ فرحًا شديدا ، فهو يخرج لأوّل مرّةٍ من مكة ، ليرى عالما جديدا ، لم تقع عليه عينُه قبل الآن . وسارت القافلة فى الصّحراء أيامًا وليالى ، حتى وصلت إلى سوقِ بُصْرَى ، وهى مكانٌ بشرق الأردُنّ ، وكان يأتى إليه التّجار الرومان ، ليقايضوا العرب ببضائعهم .

وكان بالقربِ من السوق دير ، وكان بذلك الدير راهبٌ اسمُه بَحيرا ، وكانت قوافلُ العربِ تمرُّ بالدير فلا يلتفتُ إليها بَحِيرا ، ولكنَّ هذه القافلَةَ التى بها محمد ، لفتتْ نظَره ، فأرسلَ إلى أبى طالب :

ـ إنى قد صنعتُ لكم طعامًا يا معشرَ قُريش ، وأحِبُّ أن تَحضُروهُ كلُّكم : صغيرُكم وكبيرُكم ، وعبدُكم وحرُّكم .

فتعجَّبوا من أمرِه ، وقال رجلٌ منهم :

ـ بَحيرا ، ما كنتَ تصنعُ هذا بنا وكنّا نمرُّ عليكَ كثيرا ، فما شأنُك اليوم ؟

فقال بَحيرا :

ـ صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنّكُم ضَيْف ، وقد أحبَبْتُ أن أُكرمَكم ، وأصنعَ لكم طعاما ، فتأكلوا منه كلُّكم .

فذهبوا إليه ، وتخلَّف مُحمد ، وجلس وحدَه تحتَ الشَّجرة ، فقال بَحيرا :

ـ يا معشرَ قريش ، لا يتخلَّفْ أحدٌ منكُم عن طعامى .

فقالوا :

ـ يا بَحيرا ما تخلَّفَ عن طعامِك أحدٌ ينبغى له أن يأتيَك ، إلاّ غُلام ، وهو أحدثُ القوم سنّا .

فقال بَحيرا :

– فليحضُر هذا الغلامُ معكم ، فما أقبحَ أن تحضُروا ويتخلّفَ رجلٌ واحد ، مع أنىّ أراهُ من أنفسِكم .

فقال رجل :

– واللّاتِ والعُزّى (صنمان كانوا يعبدُونهما) إنّهُ لُؤمٌ منّا أن يتخلّفَ ابنُ عبدِ اللّه بن عبد المطّلب ، عن طعام من بينِنا .

ثمَّ قام إليه ، وجاء به فأجلسَهُ مع القوم .

وجلس محمدٌ إلى جوارِ بَحيرا ، وأقبل بَحيرا عليه يحدِّثه . قال له :

– بحقِّ اللّاتِ والعزّى إلاّ ما أخبرتَنى عمّا أسألُك عنه ؟

وكان محمّدٌ يكرهُ الأصنام ، ولا يعترف باللاّت والعُزّى وهُبَل ، والأصنام الأخرى التى يعبُدها قومُه ، فقال :

- لا تسألنى باللاّتِ والعُزّى شيئا ، فواللّه ما أُبغِضُ شيئًا قطُ بغضَهما .

فنظر إليه بَحيرا مدة ، ثم قال :

- فباللّه إلاّ ما أخبرتنى عما أسأُلك عنه ؟

فقال له محمد :

- سلْنى عما بدا لك .

فجعل بَحيرا يسأله عن أشياءَ من حالِه ، ومن نومِه . فلما فرَغ ، ذهبَ إلى أبى طالب ، وقال له :

- ما هذا الغلامُ منك ؟

قال أبو طالب : ابنى !

فقال بَحيرا فى توكيد ؛ لأنه كان يعلمُ أن النّبىّ المنتظرَ يشِبُّ يتيما :

- ما هو ابنَك ، وما ينبغى لهذا الغلامِ أن يكونَ أبوه حيّا .

قال أبو طالب :

ــ فإنه ابنُ أخى .

ــ فما فعلَ أبوه ؟

قال أبو طالب : مات وأمُّه حبْلَى به .

ــ صدقت ، وما فعلتْ أمُّه ؟

ــ تُوُفِّيت قريبا .

ــ صدقت . فارجِع بابنِ أخيك إلا بلادِه ، واحذَرْ عليه اليهود ، فواللّه لئن رأوه ، وعرَفوا منه ما عرَفت ليَقتلُنَّه .

٥

عاد مُحمَّدٌ من الشام ، فكان يرعَى غنَم أهله ، يَمضي نهارَه في الفضاء يتأمَّل الدنيا ، وينظُر إلى السَّماء ، فتتفتَّح لهُ أسرارُ الكوْن ، ويحنو على الغنم الضَّعيفة ، فتسكُن قلبَه الرأفة . كانت رعايةُ الغنمِ إعدادًا له لرعايةِ الناس !!

وفي ذاتِ ليلة ، أراد محمَّدٌ أن يَلْهوَ في مكة كما يلهو الفِتيان ؛ كان أغنياءُ مكة يُقيمونَ في بيوتِهم الحَفَلاتِ الصاخبة ، فتُغنّي المغنيات ، وترقص الراقصات . وكان الفِتْيان يذهبون إلى تلك الحفلاتِ ، يُشاهدون الرقص ، ويستمعونَ إلى الغِناء ، فالتفتَ إلى فتىً كان يرعَى معه الغنم ، وقال له :

– احْرُسْ عليَّ غنمى حتى أسْمُرَ هذه الليلةَ بمكـة ، كما يسمُرُ الفِتيان .

قال الفتى : نعم .

وراح الصَّبىُّ يحرُسُ غنَمَ محمَّـد ، وذهـب محمَّـد ، حتى إذا بلغَ دُورَ مكة ، سمِع غِنـاءً وصـوتَ دُفـوفٍ ومزامير ، فقال :

– ما هذا ؟

– رجلٌ من قريش تزوَّجَ امرأةً من قريش .

وجلس لينظر ، وإذا بـالنومِ يغلِبـه ؛ فنـامَ دون أن يَرَى أو يسمعَ شيئا ، ومرَّ الليل ، وما أيقظه إلا حـرُّ الشمس ، فقام وعاد إلى غنمِه .

إن اللّه الذى عَصمَه من أن يعبُد الأصنام ، عصمه من أن يلهُو كما يلهو فِتيانُ قريـش ؛ لأن اللّـه كـان يُعدُّه لأمر عظيم .

٦

قدم رجلٌ إلى مكةَ يبيع بضاعَته ، فاشتراها منه أحدُ أشرافِ قريش ! ولكنه لم يُعطه حقّه ، فذهب الرَّجُلِ إلى أشرافِ القوم ، يسألُهم أن يُساعدوه على ردِّ حقّه ، فرفضوا . فصعد الرجل على جبلِ أبى قُبيس وهو جبلٌ بمكة ، وراح يصيح ، يطلبُ من ينصُرُه . فقام إليه الزُبيرُ بن عبدِ المطّلب ؛ عمُّ محمد ، وأشرافُ قريش ، ودخلوا دارَ ابن جُدْعان ؛ وكانت دارَ المشورةِ والاحتفالاتِ بمكة ، ودخل محمَّد معهم ، واتّفقوا على أن يكونوا يدًا واحدة مع المظلومِ على الظالم ، حتى يُردّوا إلى المظلومِ حقّه .

وساروا إلى الشَّريف ، الذى لم يدفعْ للرَّجلِ ثمنَ بضاعتِه ، وأخذوا منه البضاعةَ ، وردّوها إلى الرجل .

اشترك محمَّـد فى هذا الحِلْف الذى أُطْلِقَ عليه حِلفُ الفُضُول ؛ لأنه كان يَكرهُ الظلم ، ولأنه كان ذا عواطفَ نبيلة ، تدفعه إلى مدِّ يدِ المعونةِ إلى المظلومِ والمغبون .